خواطر في الشعر العربي

للأستاذ محمود البشبيشي
المدرس بدار العلوم

للرسالة الغراء فضل على الأدب العربي أن أتاحت لقرائها فرصا كثيرة للاطلاع على آراء ناضجة، وبحوث طريفة في الأدب العربي ولقد أثار كتابها الفضلاء موضوعات طليّة في هذه الناحية لقيت من قادة الأدب والباحثين فيه عناية كبيرة، تردد صداها على صفحات (الرسالة) وفي أندية الأدب، وإذا كان من حق الرسالة على أدباء العربية أن يشكروا لها حسن مسعاتها، فان من واجبهم أن يبوحوا بما يهتدون اليه من آراء حيال هذه الموضوعات، ليكون للأدب من كتاباتهم وبحوثهم مدد لا ينقطع.

أثار الباحث المفضال (الدكتور محمد عوض) مسألة الشعر الذي لا يجري على سنن واحد، وكان موفقا في تسميته (بمجمع البحور) كما كان جد موفق في نقده وتجريحه حتى تركه هباءً تذروه الرياح.

ولقد كانت صيحة (الدكتور) موفقة، نبهت رجال العربية الى خطر داهم ينتظر الشعر العربي من هذه الدعوى الباطلة التي لم تعدم لها أنصارا، ولم تعتمد في قيامها على دليـــل. لقد طالما صدّعت آذاننا بمثل هذه الدعوى، فمن داع الى التحرر من القافية، الى منادٍ بجمود الشعر العربي، الى طارح لأوزان العروض المأثورة، إلى غير هذه النزعات الطائشة الغامضة، وأخيرا فوجئنا بفكرة النحلل من وحدة البحور، وفرض الشعر على غير نظام والسير فيه على غير هدى، ولقد كنا نشفق على الشعر ذلك التراث المجيد أن تعبث به هذه المحاولات، ثم يعود الينا شيء من الطمأنينة، اعتمادا على مافيه من مناعة تقيه هذه الألاعيب، غير أن دعاة هذه الفوضى الشعرية مافتئوا يعاودون الكرة بعد الكرة يريدون أن يتسللوا في غفلة الرقباء الى حمى الشعر فيستبيحوه، فاذا تمّ لهم ذلك، لجوا في طغيانهم، وقضوا على أنصع صفحات الأدب العربي، وأزهى رياضه، وانضر وجوهه، ثم نعبت غربانهم على أطلاله، وقطعوا مابين حاضر الأمة وماضيها، وبنوا على اطلال ذلك الماضي المجيد، ما خيّلنه لهم أهواؤهم من أمانيّ وأحلام،

لست أدري ماذا ينقم القوم من الشعر العربي؟ وهو الذي ساير الدهر قرونا طوالا، وماشى الحضارات على اختلافها، واتسع للأغراض الشعرية على كثرتها، واستقبل حكمة العرب واليونان بعزة الواثق بنفسه، المعتز بقوته، فما دعاه غرض الا لبّي، وما أهاب به جديد إلا استجاب، وما سمعنا أنه قعد عن حكمة المتنبي وأبي تمام، ولا تخاذل دون مباهج الحياة وأغراضها في بغداد والأندلس، ولا قصّر يوم طُلب اليه ترجمة (الالياذة)، ولا يوم دُعي لنظم (قمبيز) و (كليلوباترا)، بل ما رأيناه نفر ممن حمّلوه ما لم يخلق لأجله فنظموا به العلم، وأطالوا به المتون، فالشعر العربي خصب بطبيعته، قابل للتجديد ومسايرة الزمن، ولكن في حدود العقل والمنطق، وفي حدود السليقة العربية، والحضارة العربية.

فماذا يريد القوم بعد ذلك؟ وأي غرض يرمون اليه؟ ماذا يريدون بمجمع البحور؟ وهو نوع لاحظ له من النغم الموسيقي، الذي هو روح الشعر، وسرّ تقـــدمه على النثر، هو لون من القول يريد أن يخدع الناس عن نفسه فلا يلبثون أن يعرفوا حقيقته، ويدركوا أنه لا الى الشعر ولا الى النثر.

لقد أبان لهم (الدكتور) الفاضل ان هذا بدع من القول لم تعهده اللغات الأخرى، ولم ينزل اليه شعراؤها النابهون، أمثال (شكسبير) وصاحب الشاهنامة، وعهدنا بأصحاب هذه الدعاوى، اذا أخذهم الدليل أن يتشبثوا بأهداب التجديد، ويجروا وراء الأدب الغربي، فاذا كانت حجتهم داحضة، وأسبابهم واهية، وإذا كان فحول شعراء اللغات الأخرى لم يسفوا الى (بمجمع البحور) فماذا عساهم يقولون؟ ما أظن الباعث لأكثر هؤلاء الا الطموح الى الشهرة وذيوع الصيت، يستهينون في سبيله بلغتهم، وهي مناط العظمة، وديوان المفاخر، ومظهر الكرامة والعزة القومية، هم يحسدون الشعراء على مكانتهم!، ويحاولون ألا يقصروا في كل مظاهر العظمة، فيتعلقون بأهداب الشعر، فاذا هو نافر منهم، ويرون معاناة الشعر أمرا عسيرا على طبائعهم، شـــديدا على نفوسهم، ويدركون أن العقبة الكؤود دون الذي يريدون، قوانين دعت اليها طبيعة الشعر كفن من فنون الموسيقى، واقواها في نظرهم وحدة الوزن والقصيدة أو ما يعبر عنه بالبحور، فلا يهدأ لهم بال، ولا يقر لهم قرار حتى ينفروا الناس من هـــذه القوانين لعلهم أن يحطموها، فتصير طريق الشعر في زعمهم واضحة معبدة، وعند ذلك يستوي الشاعر والمتشاعر، ويندس في زمرة الشعراء الملهمين من لايمت الى الشعر بسبب، وقـــد نسوا ان الشعر كالموسيقى والصوت الحسن لا ينقاد الا لمطبوع عليه

رويدكم أيها الاخوان! فما أنتم ببالغي هذه الغاية! وان تراءت لكم قريبة المزار، ان شعرا يفقد أهم عناصره وهي وحدة الموسيقى لجدير أن تمجه الآذان، وتنفر منه الطباع، وما كان هذا شأنه